الفلسفة الصامتة

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز الليجي

(تتمة)

الحياة أعظم الشرور :

تحدثنا الحكمة الهندية[1] أن الأمير السعيد (ساكياموني) وهو من عرف باسم (بوذا) خرج في عربته وهو شاب قد خفي عنه العلم بالمرض والشيخوخة والموت . فوقعت عيناه على رجل مسن مفزع ، تحطمت أسنانه وسال لعابه من فمه . فدهش الأمير الذي خفي عنه حتى اليوم العلم بالشيخوخة ، وسأل سائق عربته عما رأى ، وكيف آل هذا الرجل إلى مثل هذه الحال المزرية المتقززة . ولما علم أن ذلك هو المصير المألوف للناس جميعاً ، وأن تلك الحال هي التي تنتظره بغير مناص — وهو الأمير الشاب — لم يستطع أن يواصل السير ، وأمر السائق أن يقفل راجعاً إلى البيت كي يتدبر الأمر . ثم حبس نفسه وأخذ يفكر . وربما وجد في نفسه ما يزيله ، لأنه خرج بعدئذ في العربة مرة أخرى وهو مرح سعيد . غير أنه رأى هذه المرة رجلاً مريضاً : رأى رجلا هزيلا شاحب اللون قائم العينين يرتعش من شدة الهزال . فوقف الأمير الذي خفي عنه العلم بالمرض ، وسأل عما رأى . ولما علم أن ذلك هو المرض الذي قد يتعرض له أي إنسان ، وأنه هو نفسه — وهو الأمير الصحيح البدن المعافى القلب — قد تصيبه العلة في غده ، عاد إليه ذلك الاكتئاب الذي يحرمه المتعة بحياته وأمر سائقه أن يقفل راجعاً إلى البيت . وبحث عن العزاء مرة أخرى ، وربما وجده ، لأنه خرج في عربته للمرة الثالثة قاصداً النزهة . ولكنه في هذه المرة الثالثة رأى مشهداً آخر جديداً : رأى جماعة تحمل شيئاً فسأل :

« ما هذا ؟ » فقيل له :

« هذا رجل ميت » . قال :

« ما معنى كلمة ميت ؟ » فقيل له :

« إن المرء حين يموت يمسي كذلك الرجل » .

واقترب الأمير من الجثة ، ورفع عنها الغطاء ، ونظر إليها ، وسأل :

« ما الذي سيحدث له الآن ؟ » فقيل له :

إن الجثة ستوارى التراب .

« لماذا ؟ » .

« لأنه بالتأكيد لن يعود إلى الحياة ، ولن يصدر عنه غير النتن والدود » .

« وهل هذا هو مصير الناس أجمعين ؟ هل يحدث لي نفس هذا الشيء ؟ هل يدفنونني ؟ وهل تصدر عني الرائحة الكريهة ويأكلني الدود ؟ » .

« نعم » .

« إلى البيت ! لن أركب عربتي للنزهة ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى » .

ولم يجد ساكياموني في الحياة ما ينطوي على أية قيمة وانتهى إلى فلسفته التي تقرر أن الحياة أعظم الشرور ، وأن الخير يقضي بالتحرر منها ودعوة الناس للتحرر منها بكل ما يملكون من طاقة روحية . وهذه القصة ترمز إلى فلسفة الهند الزاهدة في الحياة ، المتعلقة بالروحانية .[1] وهي عين الفلسفة التي يعبر عنها سليمان الحكيم في الكتاب المقدس إذ يقول :

« باطل الأباطيل — كل شيء باطل . ما فائدة الإنسان من أي عمل يتولاه تحت الشمس ؟ جيل يتولى وجيل يقبل إلى الأبد . إن ما كان سوف يكون . وما حدث سوف يحدث ، وليس تحت الشمس جديد ؟ هل هناك شيء نستطيع أن نقول عنه : انظر ! هذا جديد ؟ كلا . إنه من قديم الزمان الذي سلف . ليس لما سلف ذكرى ، وان تكون لما يُقبل ذكرى . أنا الذي أعظكم كنت ملكا على بني إسرائيل في بيت المقدس ، ولقد وهبت قلبي للتنقيب والبحث عن طريق الحكمة في كل ما حدث تحت السماء ... وناجيت قلبي وقلت له : هيه ، أنا مالك نعيمة كبرى وعندي من الحكمة أكثر من كل من سبقني ببيت المقدس — أجل ، إن قلبي مفعم بكثير من تجارب الحكمة والمعرفة . ولقد

(١) خلاصة من كتاب (اعترافات تولستوي) ترجمة الأستاذ محمود محمود

(١) راجع مقالنا « الفكر الشرقي القديم » في العددين : ٨١٣ و ٨١٤ من الرسالة .

وهبت قلبي لإدراك الحكمة ولمعرفة الجنون والحماقة ، فرأيت أن ذلك يبعث على الحزن العميق . ومن يزدد علماً يزدد أسى .

قلت لنفسي : الآن انطلق ، ولسوف أمتحنك بالمرح . وإذن فلتنعم بمختلف المتع . فكان ذلك باطلا كذلك ... شيدت لي بيوتاً وزرعت الكروم ، وأنشأت الحدائق والبساتين ، وغرست فيها الشجر من كل الثمار ، وحفرت البرك أروي من مائها الغابة التي تنمو بها الأشجار ، واستخدمت الخدم والإماء ، وولدت الخدم في بيتي ، وامتلكت من قطعان الغنم والماشية أكثر من كل من سبقني في بيت المقدس . وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادر الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم . وظفرت بالمغنين والمغنيات ، وبكل مايلهوبه ابن آدم ، كآلات الموسيقى وما إليها. وهكذا كنت عظيما ، وتوفر لي ما لم يتوفر لكل من سبقني ببيت المقدس . وبقيت حكمتي معي كذلك ، ولم أحرم عيني من كل ما اشتهتا ، ولم أبعد قلبي عن أي لون من ألوان السرور ... ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداي ، وإلى الجهد الذي بذلت ... فرأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس ، وليس من ورائه جدوى تحت الشمس . وهنالك حدث واحد يقع للطيبين كما يقع للأشرار وللحي الخير وحي الشر ، وللطاهر والنجس ، ولمن يضحي ومن لا يضحي ، والطيب كالخبيث ، ومن يقسم بالباطل ومن يخشى القسم . إنه شر يتخلل كل ما يقع تحت الشمس ، وكل شيء يتعرض لحدث واحد . نعم إن قلوب بني الإنسان كذلك مليئة بالشر ، والجنة في قلوبهم ما داموا أحياء ، وبعد ذلك يذهبون إلى الموتى . »(١)

شوبنهور وسقراط :

لندع أسطورة بوذا وموعظة سليمان فهما من الحكمة الشعبية الصامتة ، لنتأمل قليلا رأي كل من سقراط وشوبنهور الفيلسوفين يقول سقراط وهو يتأهب للموت : « إننا نقترب من الحقيقة كلما أشرفنا على مفارقة الحياة ؛ إذ ما الذي نجاهد في سبيله نحن محبي الحقيقة ؟ إننا نجاهد في تحرر أنفسنا من الجسد ! ولما كان الأمر كذلك ، فلماذا إذن لا نفرح حينما يأتي إلينا الموت ؟ إن الرجل الحكيم يبحث عن الموت طوال حياته ، ولذا فالموت لا يفزعه » .

ويقول شوبنهور : « إذا ما أدركنا أن طبيعة العالم الخفية ليست سوى (الإرادة)(١) ، وأن كل مظاهر الطبيعة — من الحركة اللاشعورية لقوى الطبيعة الدامغة إلى عمل الإنسان الكامل الوعي — إن هي إلا مظاهر لهذه الإرادة ، لم يعد لنا ما يبرر التخلص من هذه النتائج : وذلك أنا إن نبذنا الإرادة وتخلينا عنها طائعين ، ألفينا كذلك كل تلك المظاهر — ذلك التيار الدافق والجهد الذي لا يكل ولا يهدأ في كل مرحلة من مراحل المظاهر الطبيعية التي منها وعن طريقها يتألف العالم ؛ وتلك الصور المتعددة التي تتلو إحداها الأخرى في تدرجها ، وستختفي مع هذه الصور كل دلائل الإرادة ، وستختفي كذلك في النهاية الصور العالية لتلك الدلائل — الزمان والمكان ، والصور النهائية الأساسية ، أي أن كل ما هو ذاتي وكل ما هو موضوعي سوف يتلاشى . إذا لم تكن هناك إرادة فلن يكون هناك مظهر لشيء ، ولن يكون هناك عالم . إنه لا يبقى أمامنا بالتأكيد سوى العدم »

وقف تولستوي(٢) أمام هذه الأقوال الأربعة فوجدها جميعاً تجيب عن سؤال واحد عرض لكل منهم بصدد مشكلة الحياة ، وتنتهي إلى نتيجة واحدة :

يقول سقراط : « إن حياة الجسد شر وأكذوبة . وإذن فتحطيم حياة الجسد نعمة ، يجب أن نتمناها . »

ويقول شوبنهور : « الحياة هي مالا ينبغي أن يكون — هي شر ، والانتقال إلى العدم هو وحده ما في الحياة من خير . »

ويقول سليمان : « كل ما في الحياة — من حماقة وحكمة وثراء وفقر وسرح وحزن — باطل وعدم . يموت المرء ولا يبقى منه شيء وهذا سخف » .

ويقول بوذا : « يستحيل على المرء أن يعيش وهو يدرك أن الألم والضعف والشيخوخة والموت أمور لا مفر منها — يجب أن يتحرر من الحياة الممكنة كلها » .

ويعلق تولستوي على هذه الأقوال بما يؤيد دعوانا التي سبقت.

(١) نفس المصدر .

(١) إرادة الحياة

(٢) « اعترافات تولستوي » ترجمة الأستاذ محمود محرم ص ٤٢

الإشارة إليها وأعني انتساب المذاهب الفلسفية إلى الحكمة الشعبية فيقول :

« وما ذكره أصحاب العقول الجبارة فكرت فيه وأحسست به وعبرت عنه ملايين اللايين من أمثالهم من البشر . وقد فكرت فيه وأحسست به أنا كذلك ».

كتاب الحياة :

لعل قارئي العزيز قد اقتنع بعد هذا العرض لنصوص الكتاب والحكماء أن حس هؤلاء الدفين يكمل لهم في كثير من الأحيان النفاذ إلى كنه الحياة ، وأن حكمهم السليم البرأ من الهوى وسيلة من وسائل المعرفة الفلسفية ، وأن إنتاجهم لا يخلو من نظرات عامة في الكون لم تفسدها الصنعة ولم يحوزها الصدق في التصور ولعله قد تبين أن كتب الفلاسفة ليست وحدها المصدر الذي نستقي منه الفلسفة ، فقد نستقيها من حكمة الشعب كما بينا في مقال سابق ، وقد نستخلصها من الأدب الروائي أو الشعر والأساطير وقد نهتدي إليها في مسلك كثير من الناس ، وبالجملة قد نتمثلها في مدرسة الحياة . وقد تنبه ديكارت إلى هذه الحقيقة فأنحى باللائمة على العلوم التي تدارسها في المدرسة ، واتهم بالقصور والتفاهة المعارف التي تلقاها على أساتذته . فألقى بالكتب عرض الحائط ، وعول على أن يبدأ حياته الفكرية من جديد بقراءة « الكتاب الكبير » كتاب الحياة . فأقبل على الناس يضطرب وإياهم في مناكب الحياة ، وأنفق بقية أيام شبابه في الارتحال ورؤية القصور ، وتعلم صنعة الحرب على يد أشهر جندي في أوربا في ذلك الحين وهو الهولندي « موريس دي ناسو » . ثم رحل إلى ألمانيا ، وهناك ساهم إلى جانب بافاريا في مقاتلة بوهيميا الثائرة في الحرب المروعة بحرب الثلاثين ، وخالط مختلف الأجناس والشخصيات . وهكذا طفق يستمد فلسفته من مصدرين : نفسه حيث « النور الفطري وحيث تكمن الحقيقة كمون النار في الحجر الصوان » والعالم حيث الحقيقة حية بسيطة لم يفسدها التجريد والجفاف ، فجاءت فلسفته مثلاً رائعاً للوضوح والإشراق والتكامل الذهني ، واستحق بجدارة لقب « أبو الفلسفة الحديثة » .

الأبراج العاجية :

إن المتفلسفين الأكاديميين ليكشفون عن غرور أحمق — إذ يزدرون هذه المصادر الكبرى ويعتزلون في أبراج عاجية شاهقة بمعزل عن الحياة التي تلفهم جسداً وعقلا ، يقضون العمر فيها يجترون أفكاراً جامدة لا حياة فيها ، فارغة خلوا من المعنى ، متوهمين أنها الحق في حين أنه هنالك عند أقدامهم : في عقول المحنكين ، ذوي الحس الدقيق والبصيرة النافذة من العامة والكتاب ، ممن لم يفسد تفكيرهم التعمل . إلى هؤلاء أسوق سخرية عمر الخيام من الفلاسفة ليطامنوا من كبريائهم :

« طالما خضنا غمار الفلسفة وسمعنا من سواب وسفه
وخبطنا في مضل منسفه[1] ثم صرنا حيث كنا أولاً
لم نسر نحو الهدى قيد ذراع

كم بذرنا حكمة الفكر البصير وسقيناها حيا[2] العقل النزر
ما جنينا غير بهتان وزور ما علمنا غير أنا في الضلا
شغل البرق خبت بعد التماع[3]

ولا يفوتني أن أعيد إلى الأذهان سخرية باسكال[4] من فلسفة أفلاطون في عبارته الشهيرة « أراد أفلاطون أن يطلع على الطبيعة فسقط إلى الحضيض . » إذا كان أفلاطون العبقري الفذ مهدداً بالسقوط إلى الحضيض فما رأي المتفلسفين الذين يقيمون بينهم وبين البصيرة الشعبية سداً منيعاً ؟ لقد كان لأفلاطون من تماسك مذهبه أسس مكينة تحميه من السقوط فبماذا يتشبث أصدقاؤنا هؤلاء وهم يحتمون بأبراج من خيوط العنكبوت ؟!

خاتمة :

بعد كل ما تقدم أخشى أن نسف في فهم الفلسفة ونظن كل نظرة عابرة فلسفة كبرى ، وصاحبها فيلسوفاً كبيراً ، فنخدع عن أنفسنا ، ويركبنا الغرور . وقصارى أنيه القارىء إلى أن تلك النظرات ليست سوى محاولات للنظر الفلسفي يأتيها الحكيم الشعبي أو الروائي ، ثم إنها محاولات تلونها الانفعالات والأمزجة

(١) المضل المسفة هو الجهلة من الأرض يخبط فيها المرء غير هدى .
(٢) الحيا المطر .
(٣) الرباعيات ترجمة الأستاذ محمد السباعي .
(٤) فيلسوف ورياضي سويسري .

الخاصة ، ولا تكاد تنفصل عن السلوك العملي وشئون الأخلاق ، وقلما تتعرض لمسائل ما بعد الطبيعة . فلسفة الشعب مزيج من القول والفعل والنقل ، مصدرها تجارب العيش وصروف الأيام ، أفراح الحياة وأتراحها ؛ ويقين الشعب بفلسفته أشبه باليقين الديني لا يحتاج إلى دليل أو برهان ، وذلك ما يخلع عليها حرارة تعوز مذاهب الفلاسفة التي تتميز ببرود المنطق وجفاف الجدل . وأداة الفلسفة الشعبية ليست المنطق الصوري ، ولكنها ملكة الحكم السليم التي يدعوها الفرنسيون (bon sens) ويسميها الإنجليز (Common sense) ، وأثرها في نفسية الشعب عميق غاية العمق : تثبت فؤاده ، وتحميه مما يصادف من محن ، وتبرر كثيراً من تصرفاته . أما صورتها العامة فيعوزها التكامل لأنها نظرات مبعثرة وخواطر متفرقة يتعذر أن تأتلف كلا واحداً .

أما الفلسفة بالمعنى الخاص فبريئة من أمرين : النظرة السطحية ، والنظرة الجزئية .(١) فلسفة الخاصة (أي فلسفة الفلاسفة) تهدف إلى تفسير عام شامل للكون في مجموعه ، ولذلك كنا نجد تفسيرات الفيلسوف لمختلف نواحي الكون تنتظم كلا واحداً متناسقاً هو « المذهب » . نواة المذهب الفلسفي نظرية كبرى تتشعب منها أو تدور في فلكها نظريات فرعية منثورة في المعرفة والوجود والأخلاق ، بل والسياسة والجمال أحياناً . نواة مذهب أفلاطون مثلا « نظرية المثل » ، وأرسطو « الهيولى أي المادة الأولى والصورة » ، وأفلوطين « الفيض الإلهي » ، وشوبنهور « إرادة الحياة » ألخ ...

وللمذاهب الفلسفية قيمة كبرى فهي الوسيلة التي ينمي بها العقل الإنساني أعمق نظراته وتفسيراته . إنها تعينه على تعمق كنه الحقيقة ، وتعطي الأفكار المبعثرة حياة وحركة وقوة . مثل المذهب مثل البلورة تلم شتات الأشعة ، وتركزها في نقطه ضوئية صغيرة ، ولكنها أكثر التماعاً وانتهاباً من الأشعة المتفرقة . وبدون هذه الجهود التي يحتملها الفلاسفة من ذوي المذاهب المتكاملة ، فإن الأفكار الإنسانية المتفرقة قد تومض في لحظات من التأمل المتكاسل المتراخي وسرعان ما يتطوح الوميض .

وأضيف أخيراً أن الفيلسوف أقدر من المفكر العادي على التحرر من شطحات الخيال ، ونزوات الانفعال ، أكثر منه فردية وابتعاداً عن تيار الحياة الجارف الرتيب . لا يوقن بأمر قبل أن يتناوله بالنقد ، ولا يسلم برأي دون تمحيص ؛ لا تراوده فكرة إلا قبلها على جميع الوجوه ؛ تلقى إليه بالرأي فيطلب الدليل ، وتنقل إليه الخبر فيلتمس البرهان ، وتقدم إليه التفسير فيسعى إلى تفسير لذلك التفسير . منهجه الشك قبل اليقين . الشك في كل شيء حتى في عقله ، وشعاره النقد قبل التسليم . الاستسلام للعاطفة عنده خطأ مبين ، والرضا بالزعم الجارية إثم لا يغتفر . عقل مستديم القلق ، وذهن لا تنهاه التساؤل ، وفكر لا يني عن التمحيص . النظرة العابرة لا ترضيه ، واستكشاف الجزئيات لا يكفيه ، فيدأبه الكون في مجموعه ، وهدفه الحقيقة كاملة غير منقوصة .

(الإسكندرية) عبد العزيز الليثي

(١) أرجو أن أوفق في مقالات قادمة إلى الحديث عن الفلسفة بالمعنى الخاص .

الأسلوب القوى

والاستيعاب الموجز

والتحليل المفصل ، والاختيار الموفق

والمقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

كل ذلك تجده

في تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

اطلبه من دار الرسالة ومن المكاتب الشهيرة في مصر والخارج وثمنه ٤٠ قرشاً